التراث في فكر المجددين(*)

أ. د. حسين نصار(*)

الأمر الغريب فى اعتقادى أن يردد المثقفون كلمات التراث دون أن يحسنوا مدلول هذه الكلمة، وأن ينطلقوا من هذا التصور إلى مواقف حاسمة، وأن يروجوا لهذه المواقف فى كل تجمع، وقد اشتدت هذه الدعاوى خاصة عند المجددين المعاصرين الذين لم يرضوا حتى بهذا الوصف، وسموا أنفسهم الحداثيين، ومن أجل الكشف عن بذور هذه الدعوة وحقيقتها وتطوراتها، وما قد يكون وراءها أخصص هذه المقالات للبحث عن التراث في فكر المجددين منذ بدء نهضة العصور الحديثة إلى اليوم لأعين القارئ الدارس المعاصر في استخلاص تصورهم لهذه الكلمة الموهمة.

(١)

رفاعة رافع الطهطاوى

(١٢١٦ - ١٢٩٠/ ١٨٠١ - ١٨٧٣)

ولد فى طهطا بصعيد مصر، وتلقى التعليم الدينى المعروف فى عصره إلى أن أتمه فعين مدرسًا بالأزهر. ولما عزم محمد على الكبير على إيفاد بعثة كبيرة من الدارسين إلى فرنسا رأى أن يرسل معها من يؤمها فى الصلاة ويفتيها فيما يواجهها من قضايا دينية. فرشحه أستاذه الشيخ حسن العطار لهذه الوظيفة لإعجابه به فرحل معهم إلى فرنسا، غير أنه صمم منذ اليوم الأول فى رحلته على أن يشارك فى طلب الثقافة الفرنسية، فشرع يتعلم اللغة الفرنسية وهو ما زال على الباخرة، وقضى فى فرنسا خمس سنوات، من ١٢٤١/ ١٨٢٦ إلى ١٢٤٦/ ١٨٣١، نهل فيها ما غير مجرى حياته، وجعله جديرًا بقول أمير الشعراء أحمد شوقى يقول فى رثاء ابنه:

يا ابن الذى أيقظت مصرًا معارفُه ... أبوك كان لأبناء البلاد أبا

وجديرًا بأن يعلق محمد عمارة على هذا البيت، فيقول: «وأنا أعتقد أن ضرورة الشعر هى التى جعلت شوقى يضع (مصرًا) فى بيته هذا، ولا يضع مكانها (الوطن العربى) و (والعالم الإسلامى)، ذلك أن ساحاتهما الفكرية جميعًا، ومنتدياتهما العلمية قاطبة، قد أيقظتها معارف الطهطاوى، ومن ثم كان، بحق، أبًا ليقظتها الحديثة وأبًا لكل الذين يعتزون بهذه النهضة التى قادها فى مطلع مصرنا الحديث» (الأعمال ٩/١).

ولست فى حاجة إلى تفصيل الحديث عن حياة الطهطاوى وما فعله فى الثقافة،

فقد فعلت ذلك عدة كتب كاملة، وفصول من كتب، ومقالات فى صحف ومجلات، فصار الرجل معروفًا من القاضى والدانى، العربى والأجنبى، وإنما همى (التراث) فى فكره، وأنا لا أذكر أنه استعمل هذه الكلمة، ولكن كثيرًا مما فاه به، أو دوَّنه، أو قام به من أعمال كان هدفه التراث.

وأول ما يجب أن نضعه فى الاعتبار، فى هذا الشأن، أن رفاعة مصرى، من ذوي الأصول العربية، فهو من جهة الأب ينتمى إلى الحسين بن على، وحفيد النبى (ﷺ) وتحفظ أسرته سلسلة هذا النسب إلى اليوم، وهو من جهة الأم ينتمي إلى بني الخزرج من الأنصار.

ليس معنى ذلك الحط من إحساسه بالمصرية، بل العكس هو الصحيح، فهو من أوائل الذين عرفوا الوطنية، واشتد إيمانهم بها، فكانت الباعث الأول على كل أعماله، ولذلك لم يجد تلميذه المباشر، الملازم له، صالح مجدى حين أراد أن يدون سيرته بدًا من أن يجعل عنوانها «حلية الزمن بسيرة خادم الوطن».

لا عجب إذن أن نراه يفضل العرب وما يتصل بهم، فهم خيار الناس، ولون سُمرتهم أشرف الألوان وأحسنها، لا ينكر أحد أن السماحة والإيثار من خواصهم، ولقد ثبت بالعقل تواترًا أنهم أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة (الأعمال ١/١٣٧ - ١٤٠).

وكان يفضل اللغة العربية تفضيلاً جليًا. فهى عنده «أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأغلاها على السمع... ولسانها كالذهب الصرف، هيهات أن يحاكيه البهرج... وأتم الألسنة بيانًا وتمييزًا للمعانى جمعًا وفرقًا...» (الأعمال ١/١٣٧ - ١٣٨).

ولذلك ركز تركيزًا شديدًا على ضرورة العناية بها، وتعلمها، وفقه علومها... بل لقد تعدى بهذه الضرورة نطاق الشعب العربى إلى نطاق الأمم الإسلامية غيرالعربية، وتحدث عن الربط الوثيق بين هذه اللغة وبين الشريعة الإسلامية التي تدين بها هذه الأمم... فهذه اللغة بالنسبة إلى هذه الممالك معرفتها ضرورية، لا سيما لأهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة» (الأعمال ١/١٣٥).

وطبيعي من رجل يحمل هذا الإيمان أن يبذل كل جهد ليحيى اللغة العربية ويجعل منها اللغة الرسمية لمصر بدلا من التركية، وأن يجعلها اللغة الإجبارية في المدارس العالية (الأعمال ١/٥١، ٦٤، مناهج ـ الخاتمة ٣).

وقد تمثل هذا الجهد فى تعريب الوثائق المصرية، وكتابة المقالات باللغة العربية، ونشر قصائد الشعر فيها ومحاولة إصدار مجلة عربية خالصة، ووضع المصطلحات

العربية (الأعمال ١/٥٥ - ٦، ٧٢ - ٣، مناهل خاتمة ٣، ٥).

وتمثل فى الأمر الذى يهمنا هنا أكثر من غيره، وهو تصحيح المخطوط من التراث، وطبعه فى المطبعة الأميرية ببولاق، مثل: «مفاتيح الغيب» لفخر الدين الرازى، و«خزانة الأدب» للبغدادى، ومقامات الحريرى، و«معاهد التنصيص» للعباسى (مناهج ـ الخاتمة ٣).

وإذا انتقلنا إلى التراث خاصة وجدنا الطهطاوى يحث مؤدب الأطفال أن يعرفهم ما يستحسنه من المراسلات والأشعار، وأن يطالب تلميذه «بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب، حتي يتأكد عنده بروايتها وحفظها ... ويحذره من النظر فى الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظرف ورقة الطبع، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدًا». (مناهج ٦٨، ٧٠).

إذن هو يجعل التراث شطرين، والمعيار الذي يستند إليه فى هذا التقسيم خلقي، فما وافق الأخلاق الحميدة فهو ما طلب معرفته وحفظه والالتزام به، أما ما لم يوافقها فقد نهى عن مجرد النظر فيه.

ويتنوع التراث الحميد عنده كما ترى فى جعله «الوطن كالجسد، يصلحه إزالة العضو غير النافع كما أن الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس، وإبقاء المثمر اليافع، وفي قوله يشرح هدفه ومنهجه فى كتاب «مناهج الألباب»: «فلهذا بذلت المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نخبة جليلة، وترصيف تحفة جميلة، في المنافع العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية...، وعززتها:

بالآيات البينات،

والأحاديث الصحيحة،

والدلائل البينات.

وضمنتها الجم الغفير من :

أمثال الحكماء،

وآداب البلغاء،

وكلام الشعراء...»(الأعمال ١/٥)

ومتابعة الاطلاع علي الكتاب تضيف إليها:

التاريخ،

والحكايات،

والكتب.

أما الآيات القرآنية فهي واضحة وضوحا بارزًا فى جميع أرجاء كتبه، يقول فى «مناهج»: «وتكفى حب الوطن أن كراهة الإجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إلا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وقد تتبعت الصفحات الخمس والعشرين الأولي من الكتاب، فوجدت الطهطاوي يكاد يأتي بالآيات فى كل صفحة (١٣، ١٤، ١٥، ١٧- ٢٠، ٢٤، ٢٥).

ويقول فى «المرشد»: فقد كتبت يد القدرة الربانية بغير آلات، وسطرت الإرادة الصمدانية خطوط المصنوعات، وجعلت ذلك وقفًا على تلاوة البصائر والألباب... فكل هذا يرشد إلى معرفته - تعالى -، وحكمته وحوله وقوته، كما نبه عليه - تعالى - بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلا بِالْحَقِّ﴾ ونحو ذلك من الآيات الدالة على بديع صنعته، وتدبير ملكه وحكمته» (الأعمال ٢/٢٨٤).

ويقول: «وأما من يعرف الواجب والجائز والمستحيل فيعلم أن كل مقدور - بالإضافة إلى قدرته تعالى ، قليل - فالعاقل إذا سمع معقولاً غريبًا استحسنه، والجاهل إذا سمعه قطع بتكذيب قائله، وزيف ناقله، لقلة بضاعة عقله، وضيق فضله، ولهذا وصف - تعالى - الجهال بقوله: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾.

وقد أودع الله - سبحانه وتعالى - من عجائب المصنوعات فى الآفاق والسموات كما قال: ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ وقد نبه إلى النظر فى عجائب الدنيا بقوله: ﴿قل: سيروا فى الأرض فانظروا﴾ الأعمال ٢/٢٨٥).

واغترف الطهطاوى من الحديث النبوى الكثير، يمثل ذلك فى «مناهج» قوله: «إرادة التمدن للوطن لاتنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع، ففى الحديث: (حب الوطن من الإيمان)» (الأعمال ١/١٠)، وقوله: «حسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله (ﷺ) حين خرج من مكة، علا مطيته، واستقبل الكعبة، وقال: (والله: لأعلم أنك أحب بلد الله إليّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله (عز وجل) وأنك خير بقعة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لما خرجت)... وقال

ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (مصر خزائن الأرض، والجيزة غيضة من غياض الجنة)، ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام»(١٥).

وفى «المرشد» قال: «وفى الحديث القدسي قال الله تعالى: ﴿ومن أظلم من ذهب يخلق كخلقى، فليخلقوا، ذرة أو ليخلقوا حبة أو شعيرة) (الأعمال ١/ ٢٨٨) وقال: «وقد ورد فى الخبر عن خير البشر أنه قال: (إن الله ـ تعالى ـ يقول: يا عبدى: حرِّك يدك، أنزل عليك الرزق)... ولاينبغى أن يتوهم أن الأمر الوارد فى قوله ـ ﷺ ـ (توكلوا على الله) بالتوكل الذي مرجعه إلى أن يوكل الأمر كله إلى مالكه... وقد أشار ـ ﷺ ـ إلى أن التوكل ليس التعطيل، بل لابد فيه من التوسل بنوع من السبب، حيث قال: (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما ترزق الطير، تغدو خماصًا ، وتروح بطانا)، فإن الطير ترزق بالطلب والسعى. نعم إنه لاينبغى الإفراط فى الكدر، وصرف النظر عن الاستراحة بعض الأحيان، يشهد لذلك حديث: (إن المنبتّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى) (الأعمال ١/ ٣١٧).

واستخدم مصطلحات علم الحديث فى قوله: «يروي مرسل النسل، مسلسلا بسند الاتصال، وحديث النبل مرفوعًا مدبجًا بلجين العدوّ وذهب الآصال) (الكواكب ٧).

أما الأمثال فلم تحظ عنده بما حظيت به الآيات والأحاديث من كثرة، ولكنه كان يأتي بها بين الفينة والفينة على تباعد ما بينهما، ويشهد لها في «المناهج» قوله: «ويقال: (الدراهم مراهم) لأنها تداوى كل جرح، ويطيب بها كل صلح» (الأعمال ١/٢٨) وقوله فى ذم الدَّين «وعلى لسان العامة (لا همَّ إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع البيت)» (الأعمال ١/٤٧)، وقوله: «وقد قيل فى الحكم والأمثال: (من العجائب عبد بطال، ويطلب منازلة الأبطال) و(خير الناس من صنع الخير، وانتفع بمعروفه)» (الأعمال ١/ ٧١).

وقال فى (الكواكب ١٥): «ولما كانت أنوار ليلات الأنس المخصوصة بهذا الأمير كغيرها من التفريح فى الدرجة القصوى أنست أفراح بوران، وبها انطوى ذكر قطر الندى، وغدت حكايتها كهَيّان بن بيان». والتعبير الأخير كناية عمن لا يعرف ولا يعرف أبواه.

وأما أقوال البلغاء والحكماء والمشهورين من الأعلام فقد جلعها عمادًا لكلامه فى كل موضع، فكثرت عنده حتى ساوت الأحاديث الشريفة أو ربما زادت عنها كثرة، مثال ذلك فى «مناهج» قوله: «قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ (عمّر الله البلاد بحب الأوطان). وقال على ـ كرم الله وجهه ـ: (سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده). وقال بعض الحكماء: (لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة). وقال

الأصمعى: دخلت البادية، فنزلت على بعض الأعراب، فقلت له: أفدني، فقال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، ومكارم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه لأوطانه، وشوقه إلى إخوانه)»(الأعمال ١/١٠).

وقوله: «وقال عبد الرحمن بن عوف: (يا حبذا المال: أصون به عرضي، وأرضي به ربي) وقال ابن عباس: (الدراهم والدنانير خواتم الله فى الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، وحيث قصدت به قضيت حاجتك)، قيل لبعضهم: لِمَ تحب الدنانير وهى تدنى من النار؟ قال: (هى وإن أدنتْ منها ـ فقد صانت عنها)، وقال لبعض الحكماء من الملوك: (من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدِّين والعرض) (الأعمال ١/ ٢٧).

وفى «المرشد» قوله: «قال بعضهم: (إن طلبت المورد العذب فاسلك طريق الصعب، وسر سير المجدِّ الحازم، ولا تتكاسل في العزائم، واطلب مطالب الرجال، وإياك أن تُدعي بالبطال،ومن كلام لقمان الحكيم: الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما)» (الأعمال ٢/٣١٤).

وقوله: «وفى حكمة داود عليه السلام: (المرأة السوء لبعلها كالحمل الثقيل علي الرجل الكبير، والمرأة الصالحة له كالتاج فى رأس الأمير). وقال بعضهم: (إن المرأة السوء مثل شرك الصياد، لاينجو منها إلا من رضي الله عنه، وعن الأصمعي عن أبى عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (النساء ثلاثة: هينة لينة عفيفة: وأخرى وعاء للولد، وثالثة غل يلقيه الله فى عنق من يشاء من عباده)» (الأعمال ٢/٤٩١).

وأما الشعر فيكاد لا تخلو منه صفحة من صفحات «مناهج الألباب» فقد أورد فى ص ٣:

لاتعجبوا لهم فى أهل مصر أنْ وفوا ... بوعودهم، ما فى ألوفا منهم جفا
وافى لهم فى كل عـــام نيلُهم ... فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا

وفى ص ٤:

ديار مصر هى الدنيا، وساكنها ... هم الأنام، فقابلها بتفضيل
يا من يباهي ببغداد ودجلتها ... مصر مقدمة، والشرح للنيل
و: لا تعـاد الناس فى أوطانهم ... قلَّمـا يرعَى غـريب الوطن
وإذا شئت عيشًا بينهم ... خـالق الناس بخُلُق حسن
و: إني سمعت مع الصياح مناديًا ... يا من يعِيش على الغنى المعوانا

وفى ص ٥

وإذا الصنيعة صادفت أهلا لها ... دلت على توفيق مصطنع اليد

وهو كثير أيضًا فى «المرشد».. ونمثل به بما أورده فى ٢٧٨/٢ من الأعمال الكاملة قال الشاعر:

ومـــا شـىء أحب إلى لئـــيم - وإذا شئتم الكريم - من الجواب
مـــتـاركـة اللئـيم بلا جـواب أشـدُّ على اللئيم من السـبـاب
و : كل الأنـام بنو أب، لـكنمـــا فى الفضل تُعرف قيمة الإنسان

وفى ٢٧٩/٢: قال الشاعر:

فى المهد، ينطق عن سعادة جده أثر النجـابة سـاطع البـرهان
و: ســـأطلب كـل مـنزلة تعـــرض دونهـــا العطب
فـــإن أسلم رجـــعتُ، وقـــد ظفـــــرتُ، وأنجـح الطلب
وإن أعطب فـــلا عــجب لكل منيـــة ســـبب

ولا تخلو منه صفحة من صفحات «الكواكب، ففى ص ٧ مثلا:

لكل شىء صنعـــة أحكمت وصنعـة العقل اختيار الكرام
و : محبة ما عرفت الدهر سلوتها تجرى من النفس أو تسرى مع النفس
و : مـا لهـا آخـر لكن أولهـا تعارف سابق فى حضرة القدس
و: روحـاها روح ونفـساهمـا نفس كـــذا فليكن الحب
و: أنـا مـن أهـوى، ومـن أهـوى أنـا نحن روحـــان حللنا بدنا
و: بكم أتحدثُ هوى فلو حييتكم قلت السـلام عليّ، إذ أنتم أنا
أرى قـربه قـربي ومـغناه غنيـة ورؤيتـه ريًا، ومـحيـاه لي حيـا

واستقى الطهطاوى كثيرًا من مواده التراثية من التاريخ، ولاعجب فى ذلك؛ لأن التاريخ كان أحد العلوم التى عني بها فى فرنسا، وقد كانت ثمرة هذه العناية الكتب والفصول التاريخية البارزة فى أعماله (انظر الأعمال ٤٤٧/٢ - ٤٦٥)، وشاهدنا علي ذلك ما أورده فى «مناهج» فى ص ٤٠. «قال عبد الله بن عتبة: كان لعثمان - رضي الله عنه - يوم قتل مئة ألف وخمسون دينارًا وألف ألف درهم، وترك ألف فرس وألف مملوك، وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر، ووادى القرى ما قيمته مئتا ألف دينار، وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس وألف مملوك، وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر.

وكانت الدنيا فى أكفهم لا فى قلوبهم: صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله تعالى حين وجدت، ابتلاهم الله - سبحانه وتعالى - بالفاقة فى أول أمرهم، حتي تكلمت أنوارهم، وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ؛ لأنهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ فى اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين ﴿وأنفقوا مما جعلكم مسخلفين فيه﴾ فكانت الدنيا فى أيدي الصحابة لا فى قلوبهم.

ويكفيك فى ذلك خروج عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن نصف ماله،وخروج أبى بكر عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - عن سبعمئة بعير موفورة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عثمان - رضي الله عنه - جيش العسرة، إلى غير ذلك من أفعالهم».

ويتصل بالتاريخ الحكايات الكثيرة التي أوردها شواهد على ما يقول. مثال ذلك قوله في «مناهج»:

في ص ٢٧: «مر رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء، فتحرك له وأكرمه وأدناه، فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إليه حاجة؟ فقال: لا، ولكن رأيت ذا المال مهيبًا فهبته.

وفي ص ٢٩: اشترى ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها، فقيل له «أعتقتها ولم تصب منها؟ فقال: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾.

وفي ص ٣٤: مما يحكى أنه قيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ فقال: أن يُخْلَفُ على الضيف فيعتذر بالصوم.

وفي «المرشد».

يحكى أن امرأة من نساء بغداد جازت بمحل بين الرصافة والجسر، فمرت برجل فقال لها: رحم الله على بن الجهم، فأجابته: رحم الله المعرى، ثم تركته وانصرفت، ولم يدر من سمع ذلك ما أراد كل منهما بذلك، فكانت إشارته إلى قول على ابن الجهم:

عيون المهر بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وكانت إشارتها فى الرد عليها إلى قول أبي العلاء المعرى:

فيا دار بالخيف: إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوالُ

...كما يحكى أن بنتًا من بنات اليمن كان لها أخ يسمى ضياء فقاتل في هذه الأزمان القريبة العهد في معركة بمحل يقال له العيون، فقتل هناك، فنعته أخته ببيتين فى غاية الحماس والرقة، حيث قالت:

طاح فى معرك العيون ضياها فبكت فقده بدمع هتون
لم يكن عاشقا ولكن تقيا فلماذا غدا قليل العيون

(الأعمال ٢/٣٦١)

وقال يهنئ من اسمها فاطمة الزهراء بزواجها : «فقد آن لحضرة فاطمة الزهراء أن تتجلى لعروسها، كما تجلت سميتها قبل ذلك لامرئ قيسها، وانجلى لسليمان من مملكة سبأ جمال بلقيسها، ومالت لبنى بالوداد لقيسها (الكواكب ١٣).

وكشف الطهطاوى عن مصادر ما أتى به من أخبار تراثية فقال: «اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة، واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة، مع ما سنح بالبال وأقبل علي الخاطر أحسن إقبال» (مناهج ٥).

فأبان أنه سعى وراء الأفكار الناضجة النافعة، وأنه استقاها من ثلاثة منابع:

١ - الفكر العربى.

٢ - الفكر الفرنسى.

٣ - فكره الشخصى.

وأبان أنه وجد ضالته فى المؤلفات الكثيرة التي أذكر منها:

- عوارف المعارف (مناهج ٦٦).
- الحسبة (مناهج ٦٨).
- أقوم المسالك فى معرفة الممالك (الأعمال ٢/٤٤٠).
- رسالة منسوبة للقاضى عياض (الأعمال ٢/٤٤١).
- صحيح البخارى (الأعمال ٢/٥١٥).
- الإحياء، للغزالى (نفس المصدر).
- عقلاء المجانين (الأعمال ٢/٥١٦).

ويتضح من النص الذى أتيت به أنه يستقي معلوماته التراثية من مصدرين أساسيين، أما المصدر العربى فلا يحتاج إلى دراسة؛ لأنه جلىّ فى كل ما كتب لا في «مناهج الألباب» وحده. ولكني أود أن أشير إلى أن هذا التراث أعطاه - فيما أعطى - عناصر تراثية فارسية، مثل قوله: «ومن كلام أردشير بن بابك كسرى الفرس: (شهد

الجهد أحلى من عسل الكسل» (الأعمال ٢/٣١٦)، وقوله أيضًا: و«كان الفرس أيضًا يرغبون فى العشق، ويحثون عليه، كما حكى أن بهرام جور لم يرزق سوي ولد، فأخذ فى ترشيحه للملك، وهو ساقط الهمة، إلى أن اتفق المعلمون من الحكماء وغيرهم على أن لا نافع له غير العشق، فسلط عليه الجواري يعبثن به إلى أن علق بواحدة منهن، فأمرها الملك بالتجني عليه، وأنها لا تطلب إلا رفيع الهمة فى العلم والملك، فكان ـ بسبب ذلك ـ من أجل ملوك الفرس وأعلمهم» (الأعمال ٢/٥٥٥)، وقوله: «رفعت ذكره ملوكُ أوانه، وتباهت دواوينها بديوانه.. وحبته ولا تحية اسكندر وكسرى، إذ تقف الآراء عن مداه حسرى» (الكواكب ٣).

وطبيعي أن يزاحم التراث الفرنسي عنده التراث العربى، فهو الذى انتقل به من دنيا الانحطاط العثمانى إلى دنيا النهضة العالمية الحديثة، وأخذ بيده ليقود أمته إلى عالم الضياء، وأمثل ذلك بقوله: «فالمملكة التى سخر الله لها الجمع بين صنعتي الملاحة والفلاحة كالديار المصرية.. محرزة لوسائط التمدن على وجه أكمل، بشرط زوال الموانع والعوائق التى لا تخلو منها مملكة فى إدراك مرامها، كما أشار إلى ذلك نابليون الأول ملك فرنسا بقوله: (إن فرانسا تسارع فى أسباب التمدن، وتحصل منه على الكثير، إلا أن دولة الإنكليز تعوقها عن تتميم بعض أغراضها، ولولا ذلك لتقدمت كل التقديم فى حيازة جواهر المنافع وأعراضها)» (مناهج ٨).

وقوله: «وقد أشار إلى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه [لافونتين] الفرنساوى فى حكاية على لسان العجماوات، جعلها مكالمة بين الصرار والنملة، وترجمها بعض الأفندية فقال:

حكاية موضوعها صرار ... أودى به الجوع والاضطرار
وكان قضى الصيف فى الغناء ... وما سعى فى ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثلوج ... ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مئونه ... فراح يومًا يطلب المعونة
وقال للنملة: أنت جارتى ... ما لى سواك فى قضاء حاجتى
هل تصنعين معى المعروفا ... لا ذُقت من دهر الردى صروفا
وتقرضينى ضواعًا غله ... وطبقًا ومثردًا وحله؟

فإن أتى الصيف فقبل الصبح أردها عليك غــيــر الربح
قــالت له النملة وهى تجــرى عـذرك يا مسكين مثل عذري
ماذا فعلت فى حصيد قد مضى؟ قال لها: كان زمان وانقضى
قالت: وما ادخرت فيه للشتاء؟ قال لها: مستهزئا منكتا
كنت أغنى للحمير القمص قالت له : ياصاحبى الآن ارقص
واعلم بأن السعى فى الذخيرة يسعد كل خله وجيره
والدرهم الأبيض وهو فى يدي ينفعنى لدي النهار الأسود
(مناهج ١٢٢)

وكما كان التراث العربى مصدرا لألوان أخرى من التراث كذلك استقى من التراث الفرنسي ألوانًا من التراث الأوربى القديم والحديث، مثل التراث اليونانى الذى يتجلى فى قوله : «وقد كتب الإسكندر إلى أرسطاطاليس أن عظنى فكتب إليه: (إذا صنعت لك السلام فجدد فكر العطب، وإذا اطمأن بك الأمن فاستشعر الخوف، وإذا بلغت نهاية الأمل فاذكر الموت، ولذا أحييت نفسك فلا تجعل لها فى الآثام نصيبا)» (الأعمال ٢٨٢/٢).

وقوله: «كان يونان أسبرطة بجزيرة مورة ممنوعين من العلوم الدنيوية، ومن الصنائع التي هي على الزينة والزخرفة مبينة، وإنما كانوا يميلون إلى الشعر، لكونه يهيج نفوسهم، وبأيدها شجاعة وحماسًا، فمن ذلك ما حُكي عنهم أنه اجتمع شيوخهم وشبابهم وصبيانهم للغناء، وشرع كل يغني بشرح حاله.ونحن كذلك بهذا الوصف الآن، ومن أراد البرهان فها هي [الفرس] الشقراء والميدان، فرد عليهم صبيانهم بقولهم: ونحن سنصير يومًا من الأيام مثلكم فى حومة الفرسان، وفضلنا سيفوق فضلكم فى حوزة الشجعان، وبهذا هابهم الأجانب فى المشارق والمغارب» (الأعمال ٢٩٣/٢).

التراث اللاتيني مثل قوله: «كان الرومانيون - فى قديم الزمان - يجبرون الوطني الذي بلغ من العمر عشرين سنة أن يحلف يمينًا أنه يحامي عن وطنه وحكومته، فيأخذون عليه عهدًا بذلك، وصيغة اليمين:

(أشهد الله على أني أحمل سلاح الشرف، لأمانع به عن الوطن والدين أحاربه منفردًا أو مع الجيش، وأشهد الله على أنى لا أكدر صفو وطنى، ولا أخونه ولا أغدر به؛ وأني أركب البحار أيًا ما لزم ذلك فى جميع الغزوات التي تأمر بها الحكومة، وعلى أني أحافظ على امتثال القوانين والعوائد المقبولة فى بلادي، الموجودة فى الحال وما يتجدد منها، وأشهد الله أن لا أتحمل أحدًا يجسر أن يخل بها وينقص انتظامها).

فمن هذا يفهم أن أمة الرومانيين كانت متشبثة بحب وطنها؛ ولهذا تسلطت على بلاد الدنيا بأسرها، ولما انسلخت عنه صفة الوطنية حصل الفشل بين أعضاء هذه الملة، وفسد حالها، وانحل عقد نظامها بتعدد اختلاف أمرائها وتعدد حكامها، فبعد أن كانت محكومة بقيصر واحدة انقسمت فى المشرق والمغرب بين قيصرين: قيصر رومة، وقيصر القسطنطينية،وكانت الشوكة لباغ طويل، فصار أمرها إلى باغين قصيرين، فآل أمرها ـ فى جميع الحروب ـ إلى الانهزام، ورجعت بعد كمال الوجود إلى الانعدام، وهكذا شأن الملة المخلة الحكومة، والدولة الغير المنظومة» (الأعمال ٢/٤٣٤).

وأهم من ذلك ما أخذه من الثقافة الفرنساوية من مواد تاريخية عن القدماء والمحدثين، ودونه فى كتبه المتعددة (الأعمال ٢/٤٤٧ – ٤٦٥).

وعدد الطهطاوى الأهداف والمنافع التى يسعى إليها هو ـ وربما غيره ـ من وراء العناصر التراثية: فى مفتتح «مناهج الألباب»:

١ – تعزيز ما أتى به من أخبار.
٢ – ارتياح الأفهام إليها.
٣ – إزاحة الأوهام عن الذهن.
٤ – تأييد السعادة بها.
٥ – تأييد السيادة بها.
٦ – لتكون ذخرًا لأهل الوطن.
٧ – وسببًا للنجاح دنيا وأخرى، (مناهج ٥).

وأضاف في ص ٩: استحسانه والإعجاب به، وفى ص ٢٤: ترويح النفوس.

المراجع:

- الطهطاوي، رفاعة رافع: «الكوكب المنير فى ليالى أفراح العزيز المقمرة» ـ مطبعة بولاق ـ ١٢٨٩هـ.

- الطهطاوي : «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية»، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ ٢٠٠٢م.

- د. عمارة ، محمد : «الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي» ـ بيروت ـ لبنان ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ط ١ ـ ١٩٧٣م.